قديمًا وحديثًا

في سرقة وتخريب المخطوطات في العراق

د. أسامة النقشبندي

للمخطوطات العربية أهمية كبيرة فى التاريخ الإسلامى، فهى الوعاء الذى حفظ لنا العلوم والمعارف والفنون، والآداب، وأخبار التاريخ وأحداثه، وكل نتاجات العقل العربى، وكان لها دور فاعل فى التواصل الحضارى للأمة، ورفدها بأسباب النهوض فى كل العصور، كما كان لها تأثير مهم فى تقديم الحضارة الإنسانية، إضافة إلى قوامها المادي المتمثل بصناعتها، من الورق والكتابة والتجليد والزخرفة والتزويق، فهي من الآثار المنقولة التي تفردت بها الحضارة العربية الإسلامية.

وقد عرف الغزاة الأجانب أهمية المخطوطات فى حياة الأمة فى كل المجالات؛ لذلك استهدفت المخطوطات وتعرضت خزائنها إلى الدمار والسرقة خلال الغزو الأجنبي: فقد دمر طغرل بيك السلجوقي العديد من خزائن المخطوطات وأحرق دار العلم فى بغداد التي كانت تضم مئات الآلاف من المخطوطات، كما قام المغول عند احتلالهم بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بتدمير وحرق خزائن المخطوطات، وسرقة أكثر من (٤٠٠) ألف مخطوط وتهريبها إلى مراغة بواسطة عمليهم الخواجة نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م؛ مما أدى إلى ضياع الكثير من الأصول والتآليف التى لم تصلنا إلا عناوينها.

ومع ذلك ظل اهتمام الأمة بتراثها قائما ولم تكسل صناعة المخطوطات، وكانت خزائن الكتب تعمر بعد كل غزو وكارثة، ويتسابق الغيارى من أبناء الأمة على رفدها بالمخطوطات من جديد لتستأنف دورها فى سند الحركة الفكرية والثقافية.

ومثلما تعرضت المخطوطات سابقًا تعرضت مرة أخرى إلى الاستلاب والتهريب فى مطلع القرن السابع عشر الميلادي عند مجيء طلائع الاستعمار المتمثلة فى الشركات الأجنبية، والدبلوماسيين، والرحالة والمنقبين عن الآثار، فاستلبت المخطوطات من خزائنها ونقلت مئات الآلاف إلى خزائن أوربا وأمريكا، وتشير معظم الفهارس التي صدرت عن تلك الخزائن إلى أسماء الأشخاص الذين هربوا المخطوطات إليها، وتضع رموزًا لأسمائهم ومجموعاتهم الخطية تخليدًا لما قاموا به من انتزاع التراث العربى المخطوط وإبعاده عن موطنه الأصلى؛ لكي لا تعود الأمة ثانية إلى جذورها التي كانت سبب نهوضها بعد كل هجمة أجنبية تتعرض لها.

وكان من أشهر السراق الذي تفاخر بنقله أكثر من (١٢٠٠) مخطوطًا من العراق

ونقلها إلى مكتبة المتحف البريطانى هوالرحالة البريطانى «ولسن بتج» الذي طبع رحلته وختمها بقائمة تضمنت عناوين المخطوطات التى هربها إلى بريطانيا وأودعها المتحف البريطانى، وذكر أرقامها فى ذلك المتحف، وقد رفعت تقريرًا بذلك فى الثمانينيات، معززًا بالقوائم التي صورتها من الرحلة المطبوعة والموجودة نسخة منها فى مكتبة المتحف العراقي، وعلمت أن الهيئة العامة للآثار والتراث طالبت باسترجاعها استنادًا إلى هذه الوثيقة دون فائدة. كما أن شركة الهند الشرقية قد اشترت المخطوطات التى جمعها المستشرق «ريتشارد جونسون»، ونقلت إلى مكتبة المتحف البريطاني، وتحتل مجموعته مكانة فى تلك المكتبة، كما قام السويدي «ف. ر. مارتن» فى أواخر القرن التاسع عشر بنقل مجموعة من المخطوطات والمنمنمات، ووصلت بعض المخطوطات التى جمعها إلى بوسطن فى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق «جاردنر».

ونشطت أسواق بيع المخطوطات والمنمنمات والآثار والتحف فى أوربا فى مطلع القرن العشرين، وأقيمت لها معارض فى باريس سنة ١٩٠٢، وميونيخ ١٩١٠، وباريس ١٩١٢ وغيرها، وفى منتصف القرن العشرين صدرت بها كتالوجات وكتب ضخمة، واستمرت عملية المتاجرة والتهريب تجري في أسواق بغداد والموصل والبصرة والنجف وكربلاء وكركوك، حيث كانت تنقل آلاف المخطوطات إلى خارج العراق بمختلف الأساليب، من ذلك عملية الاحتيال التي قام بها أحد الدبلوماسيين الأجانب للاستحواذ على نسخة قيمة من مخطوطة «الحشائش» لديسقوريدس التى كانت محفوظة لدى إحدى البيوتات الموصلية، وذلك باستنساخ نسخة مشابهة لها بعد أن جلب الورق الجيد والألوان من باريس إلى الخطاط والمزخرف، وإعطاء المخطوطة المستنسخة الجديدة البراقة إلى حائزها وأخذ النسخة الأثرية النفيسة ونقلها إلى المكتبة الوطنية فى باريس، وقد نشر المرحوم صلاح الدين ساقي فى جريدة كركوك سنة ١٩٧٣ مقالة عن عمليات استلاب وتهريب المخطوطات، ومنها قيام مغترب لبنانى من جامعة «برنستن» يصحبه بعض العارفين بالمخطوطات في العراق، وجمع كمية كبيرة من المخطوطات نقلت إلى جامعة «برنستن»، وقيام المهرب يهودا (د. س.) ببيع كمية كبيرة من المخطوطات؛ حتى وصل عدد المخطوطات في تلك الجامعة إلى أكثر من عشرة آلاف مخطوط وقد عمل لها يهودا فهرسًا بطاقيًا، اطلع المرحوم كوكيس عواد على جانب منه خلال زيارته للمكتبة المذكورة سنة ١٩٥٠، وأشار إليها بكتابه «فهارس المخطوطات العربية» في العالم ص ٢٤٣، وفى مطلع الخمسينيات من القرن الماضي قام يهودا المذكور بتهريب ستة آلاف مخطوط إلى أمريكا لقاء مبلغ (٧٢) ألف دولار، وقد نقل لى المرحوم الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني فى منتصف الستينيات أنه اطلع خلال حضوره

مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد فى بغداد فى منتصف الستينيات أنه اطلع خلال وجوده فى نيويورك قبل حضوره للعراق على مجموعة من المخطوطات تقدر بعشرة آلاف مخطوط هربت من العراق عن طريق إيران إلى أمريكا، ولعل بعضها المتعلق بالتراث العلمي موجود الآن فى مكتبة الجيش الأمريكية.

وقام شخص يدعى «منكنا»، وهو عراقي من مدينة زاخو بنقل نحو ثلاثة آلاف مخطوط إلى مكتبة «سيلى أوك» فى برمنكهام فى بريطانيا، من بينها (٢٣١٧) مخطوطًا عربيًا و(٦٠٦) مخطوطات سريانية وكرشونية مع مجاميع أخرى، ونقل (أغناطيوس الموصلي) مجموعة من المخطوطات العربية وأهداها إلى مكتبة الفاتيكان ، وقائمة المخطوطات التى استلبت من العراق، والتي أشرنا إلى بعضها طويلة، والمخطوطات التى استبلت من الوطن العربى وبعض البلدان الإسلامية أطول، ويكفي أن أشير إلى بعض النوادر من المخطوطات التى كتبت في بغداد، ونقلت إلى مكتبات أوربا وأمريكا فى غفلة من الزمن، منها: المخطوطة النفيسة التي كتبها وزوقها الفنان العراقى فى بغداد يحيى الواسطي والتي تفتخر بها المكتبة الوطنية فى باريس، والتى نقلها إلى هناك شيفر الحريري، وكثيرًا ما يشار إليها فى المراجع باسمه، وهى المخطوطة الوحيدة لهذا الفنان العراقى وتمثل وخصائص فن التصوير فى المدرسة البغدادية، والمصحف الكريم الذى كتبه وزخرفه أشهر خطاط فى التاريخ، علي بن هلال ابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ هـ والموجود فى مكتبة المتحف البريطانى، وآلاف المخطوطات التى كتبها وزخرفها أعلام الخط والزخرفة في العراق، والمخطوطات الفريدة والنادرة فى مختلف العلوم والمعارف حبيسة خزائن المتاحف والمكتبات في دول أوربا وأمريكا، كما استحوذت تركيا على كمية كبيرة من نفائس المخطوطات فى أواخر الحكم العثماني ونقلت إلى خزائنها ويفتقر إليها الباحث والمحقق العربى اليوم بعد أن سلخت من موطنها الأصلي.

وفى منتصف الثمانينيات عرض أحد تجار الآثار والتحفيات فى لندن، وهو «أوليفر هور» بيع مصحف شريف وصل إلى حوزته ، كتبه وزوقه الخطاط البغدادى الشهير بياقوت المستعصمى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م وقدحاولت هيئة الآثار اقتناءه واستعدادها لدفع مبلغ مقداره (١٠٠) ألف دولار بعد أن صدر قرار من اللجنة الفنية بذلك، فلم يردنا أى جواب، وبما أن هذه النسخة النفيسة من القرآن الكريم واحدة من الآثار المنقولة المهربة، وأنه من ممتلكات العراق ومشمول بقانون الآثار النافذ فقد فاتحت هيئة الآثار الانتربول فى وزارة الداخلية بكتابها المرقم ٢٦٤ والمؤرخ فى ١٩٨٥/٥/١٨ لمفاتحة السكرتارية العامة للشرطة الدولية فى باريس لاتخاذ الإجراءات الأصولية

لإعادة هذا المخطوط الأثري النادر إلى موطنه الأصلي (العراق) من الشخص المذكور أعلاه دون أن نتلقى أى رد، وعلمنا أنه نقل إلى أمريكا لقاء مبلغ (٥٠٠) ألف دولار.

وفى شهر آذار من عام ١٩٨٢ ورد كتاب من الدائرة الصحفية فى لندن رقم ٤٧ يعلم وزارة الثقافة والأعلام عن قيام مزاد علنى للفترة من ٢٦ - ٢٩ من شهر نيسان فى معارض سوثيبى بلندن، ستباع فيه مخطوطات ومنمنمات وعملات عربية وإسلامية قديمة، من بينها نسخة نفيسة من القرآن الكريم، ومخطوطة منطق الطير مؤرخة سنة ٩٧٧هـ، ومخطوطة نادرة أخرى فى الاسطرلاب مؤرخة سنة ٦٢٨هـ لم تتم متابعتها مع الأسف.

وفى الستينيات زار العراق الكتبي المصرى المشهور «عبد الرحمن الخانجي»، وجمع عددًا كبيرًا من المخطوطات المهمة بعضها عن طريق الشراء، وتمكن من الاستحواذ على مجموعة مهمة من المخطوطات بمساعدة بعض العارفين بالمخطوطات فى العراق، ومن بينها مخطوطات من مكتبة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى النجف الكبير تتعلق بعلوم مختلفة منها مخطوطة نادرة ترقى إلى القرن السابع الهجرى تقع فى ٦٠٠ ورقة تحتوى رسائل لأساطين الحكماء العرب كالفارابى وابن سينا وغيرهم، وقد باعها الخانجي إلى بعض المستشرقين ، كما ذكر ذلك الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بوثيقة بخطه وتوقيعه والتي يذكر فيها أنه قاضاه لدى المحاكم فى مصر (أحتفظ بنسخة مصورة عنها).

وبعد العدوان الثلاثينى على العراق وخلال صفحة الغدر والخيانة تعرضت الكثير من المخطوطات إلى الدمار والسرقة كما فعل المغول عند احتلالهم بغداد، فأحرقت خزانة دار مخطوطات كربلاء فى الروضة الحسينية، وسرقت بعض مخطوطاتها، كما تعرضت مخطوطات دار صدام للمخطوطات التي نقلت إلى متحف كركوك البالغة نحو ٢٠ ألف مخطوط استطعنا من إنقاذ معظمها واستطاعت الجهات الأمنية وضع اليد على مجموعة بحوزة عصابة من الخونة وفقدت الدار (٣٦٤) مخطوطًا من بينها عدد من النوادر والأعلاق النفيسة تمت مطالبة الجهات الدولية لمتابعتها وإعادتها إلى العراق، وقدمنا قوائم بأرقامها وعناوينها وأوصافها بالعربية والإنكليزية.

وتعرضت مجاميع من مخطوطات مكتبات أخرى فى العراق لم يعلم عن مصيرها حتى الآن، من بينها سرقة مخطوطات نفيسة ونادرة من مكتبة الأوقاف فى الموصل وآثار مهمة كانت تحتفظ بها تلك المكتبة من بينها ثلاثة اسطرلابات كاملة مع صفائحها إحداها مؤرخة سنة ٦٠٤ هـ، وشمعدانات نحاسية مملوكية كبيرة، استطاعت الجهات

المختصة من استرجاع (٤١٦) مخطوطًا فقط، ويظهر أن البقية تسربت إلى خارج الحدود.

ثم بدأ نشاط بعض المهربين للاستحواذ على نوادر المخطوطات فى العراق، ومنهم عصابة كان يديرها جاسوس يحمل جواز سفر لبنانى لسرقة نسخة من القرآن الكريم بخط الإمام علي (رضي الله عنه) محفوظة فى الوضة الحيدرية لتهريبها إلى خارج العراق لقاء مبلغ خمسة ملايين دولار، استطاعت الجهات المختصة من القبض على هذه العصاربة والحفاظ على هذا الأثر العظيم، كما قبضت الجهات المختصة الحدودية على شخص برازيلى كان يحوزته مصحف نفيس سرق من مجموعة لروضة الحيدرية فى النجف بغرض تهريبه، وقد سلم إلى هيئة الآثار والتراث، وقدر ثمنه من قبل اللجنة الفنية بمبلغ (٢٥٠) مليون دينار، كما أجهضت هذه الجهات محاولات تهريب مجاميع عديدة فى المراكز الحدودية وغيرها سلمت إلى هيئة الآثار.

ولا يفوتني أن أذكر المجاميع التى هربت إلى إيران منذ منتصف السبعينيات والثمانينيات، والتى تم وضع اليد على بعضها، وكان على رأس المهربين الإيرانى «المرعشي» الذي كان مشرفًا على مخطوطات الروضة العباسية فى كربلاء، ونقل هذه المجموعة إلى جهة مجهولة، فتمت متابعته، وأعيدت المخطوطات إلى مكانها، وأحيل إلى المحاكم على مخطوطات أخرى من قبل هيئة الآثار والجهات الأمنية سنة ١٩٧٦، إلا أنه لم يتوقف عند ذلك وحاول سرقة وتهريب مخطوطات المكتبة الهندية فى كربلاء البالغة (٨٨٩) مخطوطا فتم إنقاذها ونقلها إلى دار مخطوطات كربلاء فى الروضة الحسينية، ثم قام الإيرانى «الكاشاني» بتهريب (١٦٥) مخطوطًا إلى مدينة قم ولدينا قوائم بعناوينها، وقيام الإيرانى «الهمداني» بتهريب (٢٩٦) مخطوطًا إلى إيران، من بينها مخطوطات نفيسة تعود إلى القرن السابع الهجرى، وفى عام ١٩٧٨ وصل إلى النجف عدد من الإيرانيين كان على رأسهم «الشيخ البرقعي» لتهريب مخطوطات مكتبة أمير المؤمنين العامة البالغة (٢٨٧٤) مخطوطًا، من بينها مخطوط نسبت كتابته إلى الإمام علي بن أبي طالب ، وقد قام البرقعي بوضع مجموعة من المخطوطات فى صندوق خشبي ووضع فوقها عددًا من المصاحف الكريمة المطبوعة، وكتب فوق الصندوق ﴿لايمسه إلا المطهرون﴾ ،وغادر النجف فى ١٩٧٨/٢/١٥، وقد تم القبض على المخطوطات وأعادتها إلى مكانها، وقيام الإيراني الملقب بـ«البرغاني» بتهريب (٢٥٣) مخطوطًا إلى مدينة قزوين، وقيام الإيراني «القمني» بتهريب مخطوطات مكتبة القوام فى النجف إلى إيران، ومحاولة بعض الأشخاص تهريب مخطوطات المكتبة العسكرية فى سامراء التى تم نقلها إلى أحد البيوتات فى مدينة الحرية ببغداد تمهيدًا لتهريبها

إلى مدينة مشهد فى إيران بعد رزمها بصناديق من الكارتون كتب عليها العنوان الذي سترسل إليه في البحرين ومن هنالك إلى إيران، تمت متابعتها بالتعاون مع الجهات الأمنية ووضعت اليد عليها، ونقلها إلى دار صدام للمخطوطات أمانته، ثم صدر قرار بمصادرتها من قبل المحاكم المختصة بتاريخ ١٩٨٠/٧/٣٠، والقائمة تطول حول تهريب المخطوطات إلى إيران.

إن المعلومات التى استعرضتها أعلاه هى جزء يسير مما تعرضت له المخطوطات من الاستلاب والسرقة والتهريب مما يدمي القلب ويثير الآلام عند الغيارى من أبناء الأمة. وقد أشرت إلى بعض الأسماء بألقابهم وذكرت بعض المعلومات دون تفصيل لضرورات أمنية واجتماعية ، آملا فى التعاون ومضاعفة الجهود من قبل كل الجهات المعنية لاسترجاع ما استلب وهرب، وإن القيادة الحكيمة قد وضعت كل الإمكانات المادية وبكل سخاء، وأصدرت القرارات التاريخية المناسبة للحفاظ على هذا التراث الجليل.